247229 ـ أيهما أحب إلى الله : بكاء التائبين ، أم بكاء العابدين ؟

السؤال

أيما أحب إلى الله : بكاء المذنبين التائبين الذين يجدون فى بكائهم ألما ومرارة أم بكاء المطيعين الخاشعين الذين يجدون فى بكائهم لذة وحلاوة ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

بكاء المذنبين التائبين أحب إلى الله في مقام التوبة والإنابة ، وبكاء المطيعين الخاشعين أحب إلى الله في مقام الإخبات والخشوع ، فلكل بكاء مقامه ، وليس بكاء هو أفضل من بكاء ، فالكل فاضل محبوب ، وكل بحسب منزلته ومقامه .
فالمفاضلة إنما تكون بين الأمرين يجمعهما جامع مشترك ، فيقال ـ مثلا ـ : أيهما أفضل : حفظ القرآن أم تلاوته ؟ صلاة الليل أم الجلوس للتسبيح والذكر ؟

فمقام التوبة والندم من أجلّ المقامات ، روى البخاري (6308) ، ومسلم (2744) عن ابن مسعود قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: (لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ) .

ومقام العبادة والإخبات من أجل المقامات أيضا ، وهو طريق أولياء الله العابدين . روى البخاري (6502) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ : كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ) .
وكل من التائب ، والعابد الخاشع ، يستشعر الخوف من الله ، ويؤمل في الرجاء في وجهه الكريم ، فهو لا يزال يبكي من خشية الله ، ويبكي من استشعار عظمته وجلاله وحسن الظن به ، فهما مقامان مستصحَبان ، لا يتخالفان ، ولا يتغايران .
وحياة القلب كحياة البدن ، فكما أن الإنسان إذا استشعر العطش قدم الشراب على الطعام ، وإذا استشعر الجوع قدم الطعام

على الشراب ، فكذلك إذا استشعر القلب الخوف قدم البكاء من خشية الله ، وإذا استشعر لذة العبادة كان بكاء استشعار القرب ولذة الطاعة . ولا يتخالفان ، كما لا يتخالف الطعام والشراب ، ولكل لكل منهما وقته الذي يكون فيه هو المقدم .

فمتى تذكر العابد ذنوبه كان بكاء الخوف أفضل وأحب إلى الله ، ومتى تذكر حسن الظن بالله ، واستشعر لذة العبادة ، كان بكاء الرجاء أفضل وأحب إلى الله ، فالعبد المؤمن بين الخوف والرجاء .

قل ابن باز رحمه الله :

" يجب على المؤمن أن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء حتى يلقى ربه " .

انتهى من " فتاوى نور على الدرب " (4/ 33) .

وانظر جواب السؤال رقم : (46911) .

والحاصل : أن حاجة العبد ، متى كان صادقا مقبلا على ربه : إلى المقامين جميعا ، وسيره إلى ربه لا يستقيم إلا بهما جميعا .

ثم : إن فضائل الأعمال في نفسها ، والمفاضلة فيما بينها : لا تدرك بنظر ، ولا قياس ؛ إنما مردها إلى الخبر الصادق .

والله تعالى أعلم .